**جامعة عبد الرحمان ميرة السنة الأولى/مج2/د.مولى**

**قسم اللغة والأدب العربي محاضرات النص النثري القديم**

**المحاضرة الأولى: النص النثري الجاهلي**

**تعريف النثر وأنواعه:**

**النثر لغة هو رمي الشيء متفرقا وعكسه النظم الذي يعني الضم والتأليف،ومن ثم قيل كلام منثور إذا كان لا يقيّده الوزن والقافية وكلام منظوم إذاكان موزونا ومقفى،أما قولنا النثر الجاهلي فليس المقصود به النثر الذي يتخاطب بع عامة الناس في الجاهلية إنما نعني به النثر الفني الذي يقصد به صاحبه الإمتاع والتأثير في النفوس ،إذ يمنحه صياغة فنية جميلة تجعله في مرتبة أسمى من الكلام العادي المتداول والذي يهدف أساسا إلى التواصل،يقول ابن خلدون في مقدمته:"وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة،ومنه المرسل وهو الذي يطلق في الكلام إطلاقا ولا يقطّع أجزاء،بل يرسل إرسالا من غير تقييد بقافية أو غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهوروترهيبهم.."**

**ومعنى هذا أن النثر العربي من حيث القيد أنواع:**

**1-يكون أحيانا كلاما مرسلا لا تتقيد فقراته بوزن ولا قافية وهذا هو النثر المرسل.**

**2-يكون أحيانا متفقا في فواصله في الوزن دون القافية كقوله تعالى في سورة الغاشية :"ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة" وهذا النوع يسمى مزدوجا أو الازدواج في البلاغة.**

**3-تكون فواصله متفقة في الحرف الأخير(القافية) وهذا النوع يسمى السجع ومثال ذلك قول "قس بن ساعدة" في خطبته الشهيرة:"ليل داج ،وسماء ذات أبراج،وأرض ذات فجاج.."**

**4-وقد تتفق في الوزن والقافية قيكون ذلك سجعا وازدواجا كقوله تعالى في سورة الغاشية**

**"فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة".**

**وتتمثل أهمية السجع في أنه يجعل الكلام أقرب إلى الشعر مما يمنحه إياه من إيقاع وهذا ما يزيده قدرة على التأثير في المستمع .**

**النص النثري الجاهلي وأنواعه:**

**النثر الجاهلي أنواع فمنه ما يكون قصصا ومنه ما يكون خطابة ومنه ما يكون وصايا ومنه ما يكون حكما وأمثالا ومنه ما يكون رسائل،ولكن ليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا فن الرسائل وتداولوها،وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة فقد عرفوها غير ان صعوبة وسائلها جعلتهم يستخدمونها في الأغراض السياسية والتجارية دون الأغراض الأدبية ،وإذا كنا نفتقد إلى الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي إلاّ أنه من المؤكد أنه وجدت عندهم ألوان نثرية أخرى من القصص والأمثال والحكم والخطابة والوصايا وسجع الكهان.ومن المؤكد أنهم يشغفون بالقصص شغفا شديدا وذلك لأوقات فراغهم الواسعة في الصحراء.**

**1/القصص الجاهلي:ليس بين أيدينا شيء عن أصول هذا القصص الذي كان يدور بين الجاهليين،غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دوّنوا ما انتهى إليهم منه،وطبيعي أن تتغير وتتحرف أصوله أثناء الرحلة الطويلة التي قطعها من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي(القرن 2ه) وإن ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وتنبض بروحه وحيويته،وكانت أكثر ألوان القصص شيوعا على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة،وقد ظلوا يقصون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم اللغويون والرواة الذين دوّنوها تدوينا منظما ،كما كانوا يقصون كثيرا عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم من ملوك الدولة "الحميرية" مثل "زانوبيا" مما نجده مبثوثا في كتاب "تاريخ الطبيري" و"السيرة النبوية لابن هشام" ومن المؤكد ان الكثير من هذا القصص يخالف التاريخ الحقيقي لهؤلاء الملوك،كما كانوا يقصون عن ملوك الأمم الأخرى من حولهم وشجعانهم كملوك الفرس ،ونركوا أيضا قصصا كثيرا عن كهانهم وشعرائهم وساداتهم وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معينا لا ينضب من الأخبار ككتاب "الاغاني" لأبي الفرج الأصفهاني،كما نجد قصصا عن الحب والهوى كقصة "المرقش الأكبر وصاحبته "أسماء بنت عوف" وهنام أسضا قصصا مليئا بالخرافات عن الحيوانات كخرافة الحية والفأس وقصصا عن العفاريت والجن والشياطين ليدخل هذا النوع من القصص في كتب الأساطير،وما تجدر الإشارة إليه هو أن القصص الجاهلي لم يصلنا مكتوبا بل شفويا كالشعر لذلك شكّ فيه الدارسون،ولكن ذلك لا يعني أنه لا يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيرا من ملامحه.**

**2/الحكم والأمثال الجاهلية:**

**الحكمة قول بليغ موجز صائب،يصدر عن عقل وتجربة وخبرة في الحياة،ويتضمن حكما مسلّما به تقبله العقول وتنقاد له النفوس والمشاعر،وقد كان في القبائل الجاهلية حكماء يلجؤون إليهم في الخصومات والمفاخرات والمنافرات ويستعان بأرائهم السديدة ودقة تفكيرهم وفهمهم الصحيح لأمور الحياة ومن أشهر هؤلاء "أكتم بن صيفي التميمي ،قس بن ساعدة،عامر بن الظرب العدواني،هاشم بن عبد مناف،عبد المطلب بن هاشم،وهند بنت الخس..**

**ومن أمثلة الحكم الجاهلية:العتاب قبل العقاب/أترك الشر يتركك/ أول الحزم المشورة/مصارع الرجال تحت بروق الطمع/أدب المرء خير من ذهبه/رب ملوم لا ذنب له...**

**وقد تشتهر الحكمة وتذيع بين الناس فتصير مثلا،وهذا ما جعل الكثيرين لا يفرقون بين الحكمة والمثل بينما يجغل البعض المثل هو تلك الجملة المقتضبة من أصلها حيث يكون لها أصل وقصة وحادثة معينة وهو ما يسمى "المورد" بينما الحكمة هي تلك المرسلة بذاتا ينطق بها الحكيم بعد طول تجربة وخبرة .**

**وتمتاز الأمثال بشهرتها وايجازها ودقة معانيها وإصابة الغرض المنشود منها وصدق تمثيلها للحياة العامة (الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية) وإذا كان القصص لا يحمل صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخر تدوينه فإن الأمثال تحمل غير قليل من هذه الصورة وذلك لأنها بامكانها أن تبقى مدة طويلة بصورتها الأصلية بحكم ايجازها وكثرة تداولها بين الناس،وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة إذ ألّف فيها "صحار العبدي" أحد النسابين أيام" معاوية بن أبي سفيان"كتابا،وفي القرن 2ه كان التأليف في الأمثال أكثر إذ اهتم بها علماء البصرة والكوفة ومما وصلنا من هذا القرن كتاب "أمثال العرب" للمفضل الضبي وكتاب "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري ومن يرجع إلى هذه المؤلفات يجدهم لا يسوقون الكلمة السائرة التي تسمى "مثلا" ولا يكتفون بذلك بل يقفون غالبا لسرد القصة التي تمخض عنها المثل.وقد يعمد صاحب المثل إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه فإذا هو يسجع حينا أو ينظمه شطرا من بيت حينا آخر،وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ليجسّم المعنى ويزيده قوة وجدة،ولا أحد ينكر فائدة الأمثال لصدورها من مختلف طباقات الشعب،فيمكننا أن نعرف شيئا كثيرا عن أخلاق العرب وأحوالهم وهي في مجملها قصيرة وجيزة تمثل بلاغة الجاهلي ومقدار ما وصل إليه من قوة التعبير،ولكن الأمثال الجاهلية مخلوطة بالأمثال الإسلامية ويصعب التمييز بينها إلاّ إذا كان المثل يدل على جاهلية صاحبه،وقد تساعد معرفة الحادثة أو القصة أو الخبر المرتبط بالمثل على التمييز ،كما قد تدل على جاهلية المثل أن يكون مخالفا لتعاليم الإسلام مثل "انصر أخاك ظالما أم مظلوما" ومن الأمثال الجاهلية المتداولة بكثرة: "تجوع الحرة ولا تأكل من ثدييها-إن الهزيل إذا شبع مات-إن أخاك من آساك-من استرعى الذئب ظلم-المرء بأصغريه قلبه ولسانه-ما كل سوداء ثمرة وما كل بيضاء شحمة-إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد-مواعيد عرقوب-جزاءه جزاء سنمار-رجع بخفي حنين-وافق شن طبقة....**

**3-الوصايا:**

**الوصية هي النصيحة التي توجه في العادة إلى الأهل والأقارب والأصدقاء،وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقّتها وما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير وبعد نظر،لأنها لا تصدر إلاّ من حكيم مجرّب ومن المشهورين بالوصايا في العصر الجاهلي:"الأوس بن حارثة الذي يقول في احدى وصاياه "يا مالك المنيّة ولا الدنيّة" يقول لولده مالك :إن ألجأتك تصاريف الزمان أن تموت كريما عزيزا، أو تعيش خسيسا وضيعا ،فاختر أن تموت كريما عزيزا" -النعمان بن ثواب العبدي الذي قال لابنه "ساعدة" والذي كان يكثر الشراب:يا بني ،إن كثرة الشراب تفسد القلب، وتقلل الكسب،وتجد اللعب،فابصر نديمك،واحم حريمك،وإعن غريمك،وأعلم أن الضمأ القامح خير من الري الفاضح "–ذو الاصبع العدواني الذي أوصى ابنه قائلا: ألن جنبك لقومك يحبوك،وتواضع لهم يرفعوك،وأبسط لهم وجهك يطيعوك،ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك..وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ،يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم".**

**4-سجع الكهان:**

**كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطّلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقى إليها من توابعها من الجن،وكان واحدها يسمى "الكاهن" كما كان يسمى تابعه الذي يوحي إليه "الرّئي"**

**Le voyant " واكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم،فكانت لديهم قداسة دينية وكان الجاهليون يلجأؤون إليهم في كل شؤونهم وقد يتخذونهم حكاما في خصوماتهم ومنافراتهم،،كما كانوا يستشيرونهم ويستعينون بأرائهم في الكثير من شؤونهم كالنهوض للحرب أو وفاء الزوجة او القتل والثأر،إلى جانب ذلك كثيرا ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر إلى جانب تفسيرهم للأحلام،وقد عرفت خطبهم المسجوعة(مرتبطة بالسجع) ب"سجع الكهان' وهي خطب واقوال مسجوعة يغلب عليها التكلف من حيث الشكل والتعمية من حيث المعنى،فهم يعتمدوا السجع فحسب بل اعتمدوا أيضا الألفاظ الغامضة المبهمة التي تترك المجال للتأويل،ومن ثمة دخل الرمز في كثير من أقوالهم إذ يومؤون غلى ما يريدون وقلّما اعتمدوا التصريح والوضوح،بل دائما ياتون بالمعاني من بعيد لأن ذلك يساعد على خداع السامع من أجل تحقيق تنبآتهم ،وقد كلن أهم ما يميز أسجاعهم عدم الوضوح والغموض في الدلالة وكثرة القسم بالكواكب والنجوم وغيرها مما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وان فيها قوى وارواحا خفية ،لذلك يحلفون بها ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين،وكتب التاريخ تحفل بأسماء لكثير منهم ك:شق بن صعب-سطيح بن ربيعة-سواد بن قارب وأكهنهم جميعا حسب الجاحظ "عزي سلمة وسلمة بن أبي حية" إلى جانب كاهنات كن في الأصل من النساء اللائي وهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها ومن أشهرهن "الشعثاء وكاهنة ذي الخلصة والكاهنة السعدية والزرقاء وزبراء كاهنة بني رئام التي يروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت:واللوح الخافق،والليل الغاسق،والصبح الشارق،والنجم الطارق،والمزن الدافق ، إن شجر الوادي ليأدوا ختلا ويحرق أنيابا عصلا،غن صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه معلا ".**

**5-الخطابة :**

**الخطابة هي فن مخاطبة الجمهور أو بتعبير آخر هي كلام بليغ يلقى في جمع من الناس لإقناعهم بأمر ما أو استمالتهم إلى مبدأ ،وقد ازدهرت الخطابة في الجاهلية وعلت منزلة الخطيب حتى أن أبا عمرو بن العلاء يقول:"إن الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر" وقد اسهمت عوامل كثيرة في ازدهارها كالحرية المتوفرة وطبيعة الحياة الجاهلية تفرض ذلك حيث كان العرب قبائل متناحرة متنازعة ومن أبرز خصائصهم الأنفة والعزة والحرص على الأخذ بالثأر والمفاخرة بالنسب والخطابة بذلك كانت أداة و ضرورة من ضروراتهم يتخذونها في السلم والحرب بالدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى .وقد اتخذوا من مجالسهم وخيامهم وأسواقهم ومن ساحات الأمراء ميادين لإظهار براعتهم الفنية في الخطابة بالتفنن في القول وحوك الكلام،فتناول الخطباء أغراضا مختلفة إذ استخدموا الخطابة في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب،كما كانوا يدعون في خطبهم إلى الحرب وسفك الدماء أحيانا وإلى الصلح وإصلاح العلاقات بين القبائل أحيانا أخرى،وكانوا كثيرا ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة أو المناذرة فيحييه محدثا بلسان قومه ثم يبدأ خطبته ،وقد ينبرون في الأسواق ينصحون قومهم ويرشدونهم على نحو ما هو معروف عن "قس بن ساعدة" بسوق عكاظ،وكان من عاداتهم في الزواج وخاصة الأشراف وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته يخطب باسمه الفتاة.**

**وقد تعارف الخطباء على جملة من السنن والتقاليد في خطبهم ،إذ كانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق والمجامع الكبار،وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم ماسكين بالعصي،راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض،كما كانوا يمدحون في الخطيب الجيد حضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق و جهارة الصوت وقوته وكانوا يعيبون التنحنح والارتعاش والتعثر في الكلام.**

**وقد عرفوا في الجاهلية نوعين من الخطابة،نوع مسجوع يستخدمونه عند المنافرة والمفاخرة ولون مرسل يستخدمونه في خطب الصلح والمعاهدة والمعاقدة ،وأكثر ما كانت الخطب عندهم قصيرة لأنها أسهل للحفظ وكانوا يتخيرون لها الألفاظ المأنوسة والمعاني الواضحة بغية التأثير والإقناع ويتخللها الشعر أحيانا دون تعمد الخطيب،وقد كانت موضوعات الخطب محصورة في أغراض هي: المواعظ الدينية-المفاخرة والمنافرة-التحريض على الأخذ بالثأر –الحض على الصلح بعد الحرب-الوصايا والنصائح-المصاهرة والزواج.ومن أشهر الخطباء في العصر الجاهلي:أكتم بن صيفي التميمي-عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو خطيب وشاعر-حاجب بن زرارة التميمي-قس بن ساعدة الأيادي خطيب العرب كافة الذي يقول في احدى خطبه:"أيها الناس :اسمعوا وعوا،من عاش مات،ومن مات فات،وكل ما هو آت آت،..إن في السماء لخبرا،وإن في الأرض لعبرا،سحائب تمور،ونجوم تغور في فلك يدور.."**

**خصائص النثر الجاهلي**

**-كثرة الأمثال والحكم في الخطب والوصايا،وهو ما تطلبه خصوصية النص إذ الغاية تقديم الموعظة للمستمع والتأثير عليه وتوجيهه الوجهة التي يريدها الخطيب.**

**-قصر الخطب،فالخطيب الجاهلي كان لا يطيل في خطبه وذلك يعود إلى أنهم يرون البلاغة في الايجاز وكان إيمان العرب بقضية الايجاز إيمانا راسخا ،كما أن لهذا القصر علاقة بالمستمع الذي يستطيع استيعاب الجمل القصيرة أسهل وأسرع مما يستوعب الجمل والفقرات الطويلة،خاصة وان الخطب شفوية تكون مسموعة وغير مقروءة.**